مادة الأدب الإسلامي / المرحلة الثانية

د. ميسون محمد عبد الواحد

المحاضرة الخامسة عشرة

عنوان المحاضرة: (موضوع الغزل في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي)

أولا- الغزل في عصر صدر الإسلام:

رغم خفوت صوت الشعر الغزلي في عصر صدر الإسلام لأسباب تتعلق بالإلتزام الشرعي والعرفي، فإننا نجد طائفة من الشعراء قد أسلمت و لم تبرأ من ظلال الجاهلية بل ظلت تعاقر الخمرة ، و تشبب بالنساء غير آبهة بتهديد بعض الخلفاء لها ، كسحيم ، عبد بني الحسحاس ، الذي لاقى مصرعه لإفراطه في التشبب ، و أبي محجن الثقفي ، غير أن بعضهم خاف وامتنع عن التشبيب المباشر ، فمال إلى الرمز والكنايات كحميد بن ثور الهلالي . أما بعضهم الأخر فقد ترك الشعر كلياً منقاداً إلى حياة جديدة عاكفاً على دراسة القرآن الكريم.

و خلاصة القول : فإن الإسلام هذّب الغزل في هذه الفترة و سلك إلى تهذيبه هذين الطريقين :

أولا- هذّب النفوس التي كان يصدر عنها ، و ثانيا- هذّب الصورة التي كان يقال فيها " فغدا أكثر تعففاً و تعمقاً. ومن الشعراء المشهورين في هذا العصر ، **كعب بن زهير بن أبي سلمى:**

هو كعب بن زهير بن أبي سلمى ، كان أبوه شاعراً ، بزغ نجمه في الجاهلية ، أسلم بعد تردد طويل ، و بعد أن هجا الإسلام ، و أنشد في مناسبة ارتداده قصيدته المشهورة " بانت سعاد " التي فيها خلع عليه النبي- صلى الله عليه وسلم- بردته ، فسميت " البردة " فكانت أمانا له ونجاة من الوعيد:

يقول كعب بن زهير في قصيدة البردة:

بانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي اليَوْمَ مَتْبُولُ مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ

وَمَا سُعَادُ غَدَاةَ البَيْنِ إِذْ رَحَلُوا إِلاَّ أَغَنُّ غَضِيضُ الطَّرْفِ مَكْحُولُ

أُنْبِئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ أَوْعَدَنِي وَالعَفْوُ عَنْدَ رَسُولِ اللهِ مَأْمُولُ

والقصيدة بشكل عام تتوفر على الأغراض الآتية:

١- مقدِّمة غزَلِيَّة / ٢- في وصف النَّاقة / ٣- اعتذار للرسول – صلَّى الله عليه وسلَّم. ٤- مَدْح للرسول – صلَّى الله عليه وسلَّم / ٥- مدح الصحابة.

ورغم هذه الأغراض المتعدِّدة في القصيدة، فإنَّها تضمُّها وَحْدةٌ نفسيَّة وشُعورية واحدة، كما نلحظ براعة كعبٍ في الانتقال من كلِّ غرَضٍ إلى الغرض الَّذي يليه.

نجد في هذه المقدِّمة الغزَلية انتقالَ كعبٍ من صورة إلى صورة في انتقالات سريعة؛ فهو بعد أن يبيّن حالَ قلبه بعد بَيْن سعاد، يصوّره كالأسير المتيَّم المكبَّل بالقيود، ويُقارن بين حاله في هذا الأمر وحالِ سعاد الراحلة عن مَرابعها، غضيضةَ الطَّرْف، مكحولةَ العينين. ثم يعتذر الشاعر عما بدر منه بعد أن أوعده رسول الله – صلى الله عليه وسلم– وهدر دمه وهو يؤمل من اعتذاره بعفو رسول الله عنه لأن العفو من أخلاقه وصفاته – صلى الله عليه وسلم.

ثانيا– الغزل في العصر الأموي:

ازدهر الغزل في هذا العصر ازدهاراً لا مثيل له ، و ذلك بفضل عوامل عديدة أهمها : الترف و نضارة العيش اللذان تمتعت بهما معظم الممالك الإسلامية ، و خاصة الحجاز.

فشاع الغزل في العصر الأموي وتعددت ألوانه واتسعت مظاهره، بل أنه أخذ مظهرا جديدا لم يكن له من قبل، فقد وجد شعر الغزل مستقلا لا يشركه غرض آخر وظهرت وحدة الغرض في القصيدة الغزلية كما وجد شعراء وقفوا حياتهم وفنهم على الغزل لا يقولون في غيره ولا يطرقون بابا آخر سواه، فكل خاطرة من خواطرهم وكل نزعة من نزعاتهم لا تتصل إلا بالمرأة تصف جمالها الفتان، وحديثها العذب، وحبها المبرح ووصالها الحلو، وصدها المضني.

و نتيجة لهذا كله ازدهر الغزل واتجه إلى ثلاث تيارات أو مدارس هي:

آ – **المدرسة العذرية** : وعمادها العفة و الحب الصادق و الاقتصار على حبيبة واحدة ، و سميت بالعذرية نسبة إلى قبيلة عذرة التي اشتهرت به ، و يطلق عليها

أيضاً اسم المدرسة البدوية ، لأنها نشأت و عاشت في البادية ، شعارها قول جميل بن معمر:

يهواكِ ما عشت الفؤاد فإن أمت يتبع صداي صداكِ بين الأقبر

وقول جميل بثينة كذلك:

ألا ليتَ أيام الصفاء جديدُ ودهراً تولى ، يا بثينَ، يعودُ

فنغني كما كنّا نكونُ، وأنتمُ قريبٌ وإذ ما تبذلينَ زهيدُ

خليلي، ما أخفي من الوجدِ ظاهر فدمعي بما أخفي، الغداةَ ، شهيدُ

فالشاعر يتمنى لو عاد له الشباب والأيام الماضية التي كان يلتقي فيها ببثينة ، وكذلك يتمنى عودة الماضي وذكرياته مع محبوبته القريبة منه والمتمنعة عنه ، وينادي أصدقاءه مخاطبا لهم بأنه بالرغم من إخفائه وجده وحبه إلا أن دمعه يفضحه ويشهد على تأثره. و من أبرز ممثلي هذه المدرسة جميل بن معمر ، كثير عزة ، قس بن ذريح ، قيس لبنى ، قيس بن الملوح المعروف بمجنون ليلى ، عروة بن حزام.

ومن خصائص الغزل العذري:

١- الوحدة الموضوعية، فالقصيدة تقتصر على موضوع واحد ألا وهو الغزل العفيف، ووصف ما يُكابده الشاعر من لوعات الشوق، حيثُ يبدأ قصيدته بالوقوف على الأطلال، والتغزل بالمحبوبة وبكاء رحيلها، فهو لا يستطرد في قصيدته كما يفعل الشعراء الآخرون.

٢- صدق العاطفة، فهذا الحب الصافي ينبع من مشاعر جياشة وخلجات قلبٍ محروم. طوَّر الشعراء العذريون في المعجم اللغوي، حيثُ أضافوا له الكثير من ألفاظ العشق المصونة والراقية.

١- ونظراً لطبيعة البيئة الصحراوية التي كانوا يعيشون فيها، فقد مالوا لاستعمال ألفاظ عربية جَزِلة وواضحة في الوقت نفسه.

٢- اقتصارهم على محبوبة واحدة، وقد اقترنت أسماء هؤلاء الشعراء بمحبوباتهم.

٣- استخدام الأخيلة والتصويرات العذبة التي تعكس مدى معاناتهم وتعلقهم بالمحبوبة.

٤- تسلسل الأفكار في القصيدة، فتخرج لنا القصيدة بأبيات متناسقة، تتعانق فيها الأفكار مع بعضها.

ب – المدرسة الحضرية :

وتعتمد الظرف والترف الكلامي والفكاهة والدعابة والجرءة في الوصف حد الفحش أحيانا، وعدم التقيد بواحدة من الحبيبات ، سميت بالحضرية لأنها نشأت في حواضر الشام و الحجاز ، شعارها قول عمر بن أبي ربيعة :

سلامٌ عليها ما أحبت سلامنا فإن كرهته فالسلام على أخرى

يقول عمر بن أبي ربيعة:

أَمِنْ آلِ نُعْمٍ أَنْتَ غَادٍ فَمُبْكِرُ غداةَ غدٍ، أم رائحٌ فمهجرُ

لحَاجَةِ نَفْسٍ لم تَقُلْ في جَوَابِها فتبلغَ عذراً والمقالةُ تعذرُ

تهيمُ إلى نعمٍ فلا الشملُ جامعٌ، وَلا الحَبْلُ مُوْصُولٌ ولا القَلْبُ مُقْصِرُ

يسائل الشاعر نفسه قائلا لها: أإلى حي آلُ نعِم تغدو مبكرًا أو تروح في الهاجرة، بسبب حاجة في نفسك تكتمها عن الناس، ولو كنت بُحت بها لأقمت عذرًا لنفسك. وأنت تحن وجدًا الى نعم، فلا شملك مجموع بها، ولا أنت تكف عن حبها.

ومن أبرز ممثلي هذه المدرسة : وضاح اليمن ، العرجي ، الأحوص ، الوليد بن يزيد ، و عمر بن أبي ربيعة الذي يعد زعيمها دون منازع .

وللغزل الحضري خصائصٌ عدةٌ يمتاز بها:

١- عدم الاقتصار على محبوبةٍ واحدةٍ كما هو الحال في الغزل العذري، وهذا ما يشير إليه كثرة الأسماء الواردة في قصائدهم.

٢- إظهار المرأة بصورة العاشقة الجريئة الراغبة بمعشوقها، وليست معشوقةً مستجيبةً كما هو الحال في الغزل العذري.

٣- التغنّي بجسد المرأة بشكلٍ صريح، ووصفها دون خجلٍ.

٤- التفاخر بكثرة العلاقات العاطفية والمغامرات المشوقة مع المحبوبة، وهذا ما يجعل قصصهم سطحيةً تخلو من عمق العواطف.

٥- كثرة الرسل بين الشاعر والمحبوبة. وصف لطبيعة اللقاء مع المحبوبة بشكلٍ حسيٍّ صريحٍ.

٦- من حيث الشكل: تعتمد قصائد الغزل الحضري في بنائها على البداية والتي تقوم على وصف محاسن المحبوبة، وسرد قصة العشق بينهما، وعرضٌ لمواقف العتاب والشكوى.

٧- يمتاز أسلوب الغزل الحضري بالطابع القصصي، والذي يعتمد على ذكر كل من: المكان الذي وقع فيه اللقاء، وغالباً ما يكون مكاناً واقعيّاً وليس خياليّاً. والزمن الذي حدث فيه اللقاء، وغالباً ما يكون في الليل. والشخصيّات: وهم الشاعر ورفاقه، والرسل بينه وبين محبوبته، والأعداء، والأصدقاء، والعواذل، والواشون. والأحداث: وهي عبارة عن ذكر كل ما حدث وقت اللقاء. والحوار: ذكر ما دار بينه وبين المحبوبة، أو ما بينه وبين الأصدقاء أو الأعداء.

٨- وحدة الغرض، والذي يقتصر على الغزل فقط من بداية القصيدة وحتى نهايتها.

ج – المدرسة التقليدية :

و هي التي تنهج خطى الجاهليين ، فتقلدهم في بناء القصيدة من وقوف على الأطلال و ذكر الأحبة و وصف الترحال ، إلى أن تصل إلى الهدف المنشود ، و من أبرز شعراء هذا اللون : جرير ، الأخطل ، الفرزدق ..... و غيرهم .